مع الدعاء في الشهر الكريم (فلسفته وعلاقته بالحياة)



في شهر رمضان، نلتقي بالدعاء كأحد شعائر العبادة التي أرادها الإسلام — في هذه الشهر — لنشارك في خلق الأجواء الروحية التي يبني فيها الإنسان شخصيته بين يدي ا∐.

وقد كان الدعاء — في شرائع السماء القديمة — صلاة المؤمنين، تربطهم با∏ من دون أن يصاحبها شيء مما تعارفنا عليه الآن، حتى ارتبطت كلمة الصلاة بمفهومه في اللغة العربية.

ولسنا هنا لنؤرخ للدعاء أو لنبحث مواسمه، بل نحن هنا في محاولة سريعة للتعرف على فلسفته من جهة، وعلاقته بحياتنا من جهة أخرى، لنخرج من كل ذلك بالفكرة التي تربط العبادة بالحياة عندما تربط الحياة با□.

في بداية الحديث عن فلسفة الدعاء نجد أنه يلبي في الإنسان حاجات طبيعية ذاتية، كما يستجيب لدوافع تربوية وإيمانية، وهذا ما سنراه في ما يأتي من حديث.

- الحاجة الطبيعية:

إن ّ الدعاء حاجة ذاتية طبيعية للإنسان المؤمن با□، يحس بها في داخله تماما ً كما يحس بلذعة الجوع عند حاجته إلى الطعام، وحرارة العطش عن حاجته إلى الماء، فهو جوع الإنسان للحنان وللسلام الذي يملأ

قلبه بالحياة وروحه بالنور.

فهناك حالات يشعر الإنسان فيها — أمام قسوة الحياة، وضغط المشاكل وتراكم الأزمات الداخلية والخارجية — أنسّه بحاجة إلى التعبير عن الآلام التي تمزق ذاته، والمشاعر التي تجيش في نفسه، من دون أن يجرح كبرياءه أو يهدر كرامته.

وهنا يأتي دور الدعاء الذي يسمح للإنسان بأن يتنفس بكرامة ومحبة وللروح أن تنطلق بعزة وحنان، فيفتح قلب الإنسان على ربه، وينطلق بروحه إلى ا□ حيث السلام والطمأنينة، والحياة الوادعة الرضيةالمطمئنة التي تجعل الإنسان يغفو على هدهدات الأمل، عبر لفتات الرحمة، ونبضات الرضوان.

إن "الإنسان يتحول — آنذاك — إلى طفل في روحه؛ يعيش طفولة الروح بكل بساطتها وصفائها وعفويتها، عندما يجلس بين يدي ا□ في إيمان محبب وديع واثق بالفوز، مطمئن للفرج.

إنّه يبكي ويشكو ويتألم، ويطلب ويستعطف، ويلح في الطب والاستعطاف، ويمارس شتى الأساليب التي تمثل مظهر الضعف في الإنسان. ولكنه — مع ذلك — يبقى يحي بلذة هذا الضعف الذي يربطه بمصدر القوة المطلقة، ليستمد منه القوة على مواجهة عقبات الحياة.

إنَّه ضعف المخلوق أمام خالقه، الضعف الوحيد الذي يشعر معه الضعيف بالاعتزاز، والزهو بضعفه عندما يقف أمام القوي.

وهكذا كان الدعاء، عامل تجديد لقوة الحياة في الإنسان، لئلا يختنق بين قسوة مشاكله وضغط كبريائه، فيتحول إلى إنسان منهار أو معقد.

- الاعتراف الإيجابي:

قد يستسلم الإنسان في حياته إلى رغبة ملحة تضغط عليه، وتدفعه تحت عبء الضمير المثقل إلى الإعتراف بنواياه السيئة، وأفعاله الشريرة، وخططه الشيطانية تجاه نفسه وتجاه الآخرين كوسيلة من وسائل تجسيد الإحساس بالذنب في داخل النفس، ليتعاظم بذلك الشعور بالندم.

وهنا يقف الإنسان بين الإعتراف للخالق، وبين الإعتراف للمخلوق.

ويأتي دور الدعاء ليحقق للإنسان اختيار الاعتراف 🛘 لعدة أسباب:

أ□. إنّه باعترافه □ لا يكشف سره لأحد؛ فهو مع ا□ مكشوف بكل أعماله ونواياه، فلا يزيده الاعتراف انكشافا ً أمام من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، بينما يمثل الإعتراف للمخلوقين انسحاق شخصيته أمام افتضاح سره.

ب□. إن ّ الغاية من الإعتراف هي الوصول إلى تصحيح الخطأ وفتح صفحة جديدة، وهذا ما يكفله الدعاء الذي يمثل الإعتراف □ الذي هو الملاذ والمرجع للمغفرة والعفو والرضوان. أما الإنسان — أي إنسان كان — فلا يملك أي شيء من هذا، حتى الأنبياء والأوصياء الذين لا يملكون الشفاعة إلا لمن ارتضى ا□، ولهذا فلا يحقق الإعتراف للإنسان أي هدف. ت ان الله المترافه القدر على تحليل ذاته، ودوافعه، وتفصيل أعماله وأحواله، بكل جوانبها ومظاهرها، لأن الله يشعر بحرية الإعتراف بعيدا ًعن الملابسات الذاتية والاجتماعية، بينما يشعر الإنسان أمام الإنسان الآخر بكثير من الملابسات التي تحول بينه وبين الافاضة بكل شيء، مما قد لا يتحمل الآخر سماعه أو لا يرضى المعترف بإظهاره لأحد.

ث⊡. تحقيق عملية النقد الذاتي بشكل أفضل، فالإنسان يشعر — مع الدعاء — بأن ّ إرادة التغيير نابعة من داخل الذات، لا من ضغوطات خارجية تمارس المواعط والنصائح والتهديدات.

إنّ الدعاء يوحي للإنسان أنّه هو — وحده — يريد أن ينقد ذاته ليغيرها إلى الأفضل. وهذا ما يجعل المهمة أكثر انسجاما ً مع النفس وأكثر التقاء ً بالأهداف.

وقد حفلت الأدعية المأثورة عن أئمة المسلمين بالكثير من أساليب الاعتراف التي يبرز فيها الإنسان بكل جرائمه وشروره وخطاياه أمام ا□، في محاولة للإنطلاق منها إلى عالم الفضيلة جديد.

أما الجانب الثاني من الحديث، وهو علاقة الدعاء بحياتنا العامة والخاصة، فنستطيع أن نفهمه إذا استعرضنا لمحة من الأدعية المأثورة، لنرى كيف ساهمت بالإيحاء بالمعاني الخيرة، والخروج بالدعاء عن أن يكون مجرد عبادة روحية خالصة لا ترتبط بالحياة من قريب أو بعيد، إلى عبادة تحاول أن تجعل من أجواء المادة.

1- تحمل المسؤولية:

الشعور بالمسؤولية تجاه الجانب السلبي من تصرفات الإنسان، تماما ً كما هو الجانب الإيجابي منه. وقد نلمح ذلك واضحا ً في بعض فقرات دعاء الإمام زين العابدين في الإعتذار عن تبعات العباد والتقصير في حقوقهم:

"اللهم" إنسي أعتذر إليك من مظلوم ظُلم بحضرتي فلم أنصره، ومن معروف أُسدي إليّ فلم أشكره، ومن ذي فاقة سألني فلم أُوقره، ومن عيب مؤمن ظهر لي فلم أستره، ومن كل إثم عرض لي فلم أهجره، أعتذر إليك يا إلهي منهن "اعتذار ندامة يكون واعظا ً لما بين يدي من أشباههن"".

إنّنا نجد من خلال هذه الفقرات، في الموقف السلبي تجاه حالات الظلم والحرمان والمعروف ونحوها، خطيئة ينبغي للإنسان أن يعتذر منها — كما يعتذر من سائر خطاياه — لأنّ الموقف السلبي يتحول إلى موقف إيجابي لمصلحة الظالم ضد مصلحة المظلوم، ويؤدي إلى زهد أهل المعروف بالمعروف، وإلى غير ذلك من الحالات التي لا يجوز للإنسان أن يقف فيها موقف الحياد أو اللامبالاة في أي مظهر من مظاهر الحياة التي تتمثل في معركة الصراع بين الخير والشر.

2- استمداد العون الإلهي:

الإستعانة با□ على محاربة غريزة الظلم والاعتداء على الآخرين، بالروح نفسها التي يطلب فيها الاستعانة

به على دفع ظلامة الآخرين. وقد نلمح ذلك في فقرات متفرقة من الصحيفة السجادية:

"اللهّهم فَعَيني من أن أظ ْلهِ م فَعَيني من أن أظلهُم".

"اللّهمّ اكسر شهوتي عن كل مأثم، وأزو ِ حرصي عن كل محرم، وامنعني أن أذى كل مؤمن ومؤمنة، ومسلم ومسلمة".

"ولا أُطْلَمَنَ" وأنت مطيقٌ للدفع عني، ولا أظليمَن ۗ وأنت القادر على القبض مني".

إنّه يستعدي قدرة ا□ على نفسه، ويستعطفها أن تحمي الآخرين من نزوات قوته ومن نزعاته أنانيته. أنّه يبلغ قمة السمو الإنساني عندما يرفض الظلم من نفسه كما يرفضه من الآخرين، إنسجاما ً مع الفكرة التي ترفض الظلم كمبدأ من دون النظر إلى طبيعة الظالم أو شخصية المظلوم، ومع الفكرة الدينية التي تقول: "أحبب لأخيك ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لها، فلا تـَظلـَم كما لا تحب أن تـُظلـَم".

3- مواجهة العقد:

التركيز على حقيقة إنسانية ترى الظلم نتيجة طبيعية لعقدة ضعف، تتحكم في الظالم فتدفعه إلى التنفيس بالانتقام من المظلوم. الأمر الذي يجرد الظالم من وهم العظمة الذي يحاول أن يحيط به نفسه، ليغطى عوامل الضعف داخل نفسه. وقد نلمح ذلك في دعاء ليلة الجمعة:

"يا رب، وقد علمت انّه ليس في حكمك ظلم، ولا نقمتك عجلة، وإما يعجل من يخاف الفوت، وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف ُ، وقد تعاليت يا إلهي عن ذلك علوا ً كبيرا ً".

فا□ لا يظلم لأنّه قوي. أما الآخرون فإنّهم يظلمون لأنّهم يخافون الناس ويخافون الحق، فيبادرون إلى البغي والاعتداء لتغطية هذا الضعف والتمويه على الباطل.

4- روحية العطاء:

الإرتفاع بالأخلاق إلى المستوى الذي يجعلها تنطلق من داخل الإنسان عفوياً، كما هو النور من الشمس والماء من الينبوع، ومن دون مقابل، لئلا تتحول المسألة إلى مبادلة تجارية.

أن يشعر الإنسان بالجذور الأصيلة للخير تمتد في داخل نفسه، وتدفعه للخير من أجل الخير من دون تفكير في حساب الربح والخسارة على المستوى المادي، انسجاما ً مع الفكرة الإسلامية التي تقول: "مَلُ من قطعك، واعف ُ عمِّن ظلمك، وأعط ِ من حرمك" وهذا ما نراه في دعاء مكارم الأخلاق:

"اللهّهم " وسدّ ِدني لأن أعارض من غشّني بالنصح، وأجزي َ من هجرني بالبر وأثيب َ من حرمني بالبذل، وأكافي َ من قطعني بالصلة وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة وأ ُغضي عن السيئة..".

5- الاندماج الروحي:

الإيحاء بضرورة الاندماج الروحي بالطبقات المحرومة من الفقراء والمساكين، والتعاطف معهم كخ ُلمُ ق

ذاتي، تنطلق فيه الممارسة من محبة النفس الذاتية لا من طبيعة الواجب المفروض من أعلى. ثم ّ الانسجام معهم بالسيطرة الدائمة الواعية على الإنفعالات النفسية، التي تحدث للإنسان من خلال اصطدامه بإطارهم الضيق الذي يجعلهم يفقدون الكثير من أصول اللياقة واللباقة تبعا ً لقسوة ظروفهم وخشونة واقعهم. وهذا ما تعبر عنه هذه الفقرة من أدعية الصحيفة السجادية:

"اللّهمّ حبِّب° إليّ صحبة الفقراء، وأعرِنِّي على صحبتهم بحسن الصبر..".

6- محاربة الكسل:

الايحاء الذاتي للمؤمن بأنّ البيئة التي يسودها الكسل، وتنتشر فيها البطالة تبعده عن ا□، كما تبعده عن الحياة الجادة الهادفة، الأمر الذي ينبغي له معه أن يرفض تلك البيئة، ويتحول إلى بيئة أخرى يسودها العمل والجد والإجتهاد، كما نجده في دعاء شهر رمضان في معرض تعداد الأسباب التي تبعد عن ا□:

"أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني..".

7- مكارم الأخلاق:

التركيز على تغيير الإنحراف في أخلاق الإنسان، سواء أكان الإنحراف في داخل النية، فيتمثل في التغيير في تحويلها إلى كلمات خيرة، أم في طبيعة الكلمة فيتمثل في تحويلها إلى كلمات خيرة، أم في طبيعة العلاقات الإنسانية التي ترتكز على الرغبة والرهبة، فيتمثل في تغييرها إلى علاقات ترتكز على أساس الكفاءة الذاتية والقيمة الواقعية. وسنجد كل ذلك متمثلاً في دعاء مكارم الأخلاق:

"اللهم" واجعل ما يلقي الشيطان في روعي من التمني والتظني والحسد ذكراً لعظمتك، وتفكراً في قدرتك، وتجعل ما يلقي الشيطان في روعي من لفظة فحش أو هجر أو شتم عرض، أو شهادة باطل، أو اغتياب مؤمن غائب، أو سب حاضر، وما أشبه ذلك، نطقا ً بالحمد لك، وإغراقا ً في الثناء عليك، وذهابا ً في تمجيدك، وشكرا ً لنعمتك، واعترافا ً بإحسانك وإحصاء ً لمننك..".

"اللّهمّ وصُن ْ وجهي باليسار، ولا تبتذل جاهي بالإقتار، فاسترزق أهل رزقك، واستعطي شرار فأ ُبتلى بحمد من أعطاني وذمّ ّ ِ من منعني وأنت من دونهم وليّ ُ الإعطاء والمنع".

8- التوازن الذاتي:

الإلحاح على مراقبة النوازع الداخلية في النفس، لإبقائها على طبيعة التوازن الذاتي وعدم السماح بطغيان العوامل الخارجية التي تتمثل في المدح الذي يكال للإنسان من دون حساب، وللجاه الذي يحصل عليه، أو العزة التي ينالها نتيجة اعماله وأخلاقه:

"اللَّهمَّ لا ترفعني في الناس درجة، إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزا ً ظاهرا ً إلا أحدثت لي

9- خط الاستقامة:

الإصرار على المحافظة على الحق مع الأولياء والأعداء، وعدم الانجراف مع تيار العاطفة، في إخضاع السلوك للعواطف والأغراض الشخصية والنزعات الطارئة:

"اللّهمّ وارزقني التحفظ من الخطايا، والاحتراس من الزلل في الدنيا والآخرة في حال الرضى والغضب، حتى أكون بما يرد عليّ منهما بمنزلة سواء عاملاً لطاعتك، أو مؤثراً لرضاك على ما سواهما، في الأولياء والأعداء حتى يأمن عدوي من ظلمي وجوري، وييأس وليي من ميلي وانحطاط هواي..".

وبعد.. فهذه نماذج من الأدعية الإسلامية التي لم يحاول منشئوها أن يجعلوا الإنسان يبتعد بها عن حياته، بل حاولوا أن يشددوا معها على صلته بالحياة، ويرشدوه إلى المجالات التي يستطيع أن ينتبه فيها إلى مواضع الخطأ فيصلحها، وإلى مواطن الإنحراف فيصححها، وإلى زيغ النيات فيخلصها من الشوائب. الأمر الذي يجعلنا نستوحي منها الفكرة التي تقول: ان الإسلام يريد من المسلم أن لا يصرف بوجهه عن حياته حتى وهو بين يدي ا□، بل يريد منه أن يندمج بالحياة بكل قوة، يجسد كل إرادات ا□ وكل تعاليمه التي تغدو الأرض معها جنة مصغرة، نتعلم فيها كيف نمارس نعيم ا□ في الدنيا، قبل أن نعيش معه في الآخرة.

وفي ختام الحديث، نريد للإنسان المسلم في هذا الشهر المبارك أن ينطلق مع هذه الأجواء التي تمثل السمو في الأخلاق والروح والفكر، ليحلّق بأجنحة الإيمان إلى المدى الذي يلتقي فيه بمعاني المحبة والتسامح والتعاون وبناء الحياة على أساس الإيمان، من أجل مواصلة السير في طريق ا□، طريق الحياة الرضية المرضية الوادعة المطمئنة، التي لا تستجيب إلا للنور، ولا تنطلق إلا مع الخير، حياة الذين أنعم ا□ عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

المصدر: كتاب قضايانا على ضوء الإسلام